

التربية الروحية في دعاء مكارم الأخلاق



الأستاذ يوسف مدن (*)

عندما تتخلص النفس البخيلة من بخلها وشحها عن طريق تدريبها العملي المستمر على البذل والإنفاق، وعندما تعالج النفس المفرطة في شهواتها بأساليب العفة والقدرة على ضبط الشهوة والتحكم فيها، وعندما يكبح المريبي المسلم نزعاته الأنانية بصفات الإيثار والتكبر للذات، فإن ذلك كله يندرج تحت مفهوم التربية العبادية بطريقة أزداد السلوك. وفي هذا المقال، بحث حول منهج الإمام زين العابدين عليه السلام في التربية السلوكية بطريقة الأزداد والمقابلة بين الأفعال.

• أهداف التربية العبادية بطريقة أزداد السلوك

اشتهرت هذه الطريقة عند علماء الأخلاق، والصوفية، وبعض علماء النفس المعاصرين، كما في طريقة

"الكفّ بالنقيض" أو "الكفّ المتبادل" لدى بعض السلوكيين، وبالتحديد عند "جوزيف وولبي" (1). بيد أنّ الإسلام أضفى طابعه العباديّ لتحقيق أهدافه في حقل العبادة والصحة النفسية والعقلية، فطريقة "الأضداد ومقابلة أفعال السلوك" لها جذورها في أدعية الإمام زين العابدين عليه السلام كدعاء "مكارم الأخلاق ومرضيّ الأفعال"، وبها يسعى العبد بالدعاء وبأساليب أخرى إلى تحقيق هدفين، هما:

1- سعي الفرد المؤمن منذ بدء سنوات تكليفه الشرعيّ إلى الوصول الرشيد لرضى الله سبحانه عنه كعبد مؤمن، وضمان مستقبل آمن في اليوم الآخر.

2- تحقيق توافق نفسيّ وتكيّف اجتماعيّ إيجابيّ للفرد المؤمن، وتحقيق تعديل مستمرّ في سلوكه وفكره ومشاعره ونظرته إلى الحياة، بما يحقق له راحة بال، وطمأنينة نفس، وقدراً طبيعياً من الأمن النفسيّ والرضى الداخليّ عن نفسه، وفي محيط علاقاته بمن حوله.

• نماذج من أدعية الإمام زين العابدين عليه السلام

زخر دعاء "مكارم الأخلاق" بنماذج (أضداد السلوك)، وسنكتفي بصيغ ثلاث منها، ونترك للقارئ الكريم التوسّع، فنصّ الدعاء مليء بحالات متقابلة من الأفعال وأضداد السلوك:

- الأسلوب الأوّل: "أَبْدَلْ لِنَبِيّ"

قال الإمام زين العابدين عليه السلام: "اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ،

وَأَبْدَلُنِي مِنْ بَرِّغُضَّةٍ أَهْلِي الشَّيْخَانِ (الْمَحَبَّةُ)، وَمِنْ حَسَدِ أَهْلِي الْبَدْعِيِّ
(الْمَوَدَّةُ)، وَمِنْ طِينَةِ أَهْلِي الصَّلَاحِ (الثِّقَّةُ)، وَمِنْ عَدَاوَةِ الْأَدْنِيَّةِ
(الْوَلَايَةِ)، وَمِنْ عُقُوقِ ذَوِي الْأَرْحَامِ (الْمَبَرَّةُ)، وَمِنْ خِذْلَانِ الْأَقْرَبِينَ
(النُّصْرَةِ)، وَمِنْ حُبِّ الْمُؤَدَّارِينَ (تَصْحِيحُ الْمُعْقَةِ)، وَمِنْ رَدِّ الْمُؤَلَّيْسِينَ
كَرَمِ (الْعِشْرَةِ)، وَمِنْ مَرَارَةِ خَوْفِ الظَّالِمِينَ (حَلَاوَةِ الْأَمَنَةِ) (2).

يتضمَّن هذا المقطع من الدعاء بعض الدلالات، منها:

1- ركّز على خصائص السلوك الأخلاقيّ بشقّه السويّ (الفضائل)، وما قابله من سمات غير سويّة، ونماذج السلوك السيّئ (الردائل).

2- كان عدد الردائل تسعاً، ومثلها من الفضائل والسلوك الإيمانيّ.

3- المقابلة السلوكيّة في كلمات الإمام زين العابدين عليه السلام بمثابة حركة تعبيريّة مزدوجة، عن علاقة إيمانيّة بين العبد وربّه، تمثّلت في حركتين: الأولى: حركة صاعدة من العبد تُجاه الله الأعلى، والثانية: حركة هابطة من الله سبحانه تُجاه عبده الراغب في طاعته، واستهدفت تلبية طلب عبده ورغبته، والحركتان تضيفان على الفعل الإنسانيّ طابعاً إيمانيّاً.

4- أشار إلى ثلاثة عناصر متفاعلة تمثّل أطراف الدعاء، وهي:

أ- اِسْبَحَانَهُ (خالق العباد وربهم)، يستقبل دعوات الناس ويحب طلباتهم، وينعم عليهم بخيره.

ب- عبد ضعيف راغب في عون اِسْبَحَانِهِ وحمايته ونصرته.

ج- نصٌّ يتضمّن محتوى طلب استبدال رذائل السلوك مقابل فضائل السلوك العباديّ الإيمانيّ.

5- يُلحظ في النواتج السيئة للرذائل، مقابلة نواتج حسنة للفضائل، فالإمام زين العابدين عليه السلام كعبد مؤمن أراد من ربه استبدال خصائص سلوك طيبة، وهي: المحبة والمودة، والثقة والولاية، والمبررة، والنصرة وتصحيح المقة، وكرم العشرة، وحلاوة الأمانة، بالبغيضاء، والحسد، والظن، والعداوة، وعقوق ذوي الأرحام، وخذلان الأقربين، وحبّ المدارين، وردّ الملابسين، ومرارة خوف الظالمين، وجميعها خصال سيئة، وهذا نموذج للمقابلة بين نواتج الأفعال.

- الأسلوب الثاني: "واجْعَلْ لِي.. وَاغْلِبْ لِي"

تركز هذه الصيغة على تقابل نموذجين من السلوك المضاد لبعضه بعضاً، بين دفع سلوك سيئ عن النفس؛ أي تجنّب الشر، ومقطع آخر بالرغبة في طلب السلوك العباديّ وجده وعشقه، والتلذذ الفعليّ الممتع بنواتج النفسانية في عالم النفس، وداخلها وحركتها الاجتماعية. وسيرى القارئ الكريم نوعين من التعزيز: الأوّل سلبيّ يُبعد النفس عن النار، والثاني فيه ميل للذّة التي تجلب النفس وصاحبها إلى الجنّة. وهو نوع من التقابل في أفعال الدنيا ونواتج الجزاء المأمول في الآخرة. ويتضمّن المقطعان طلباً برغبة الإمام عليه السلام في تعزيز علاقاته بربه ونفسه والناس، وهي صيغة تنتشر في نصّ دعاء "مكارم الأخلاق".

وفي نصّ الدعاء قال عليه السلام: "اللّهُمَّ صَلِّ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، واجْعَلْ لِي يَدَاً عَلَيَّ مَنْ ظَلَمَ لِي، وَلِسَاناً عَلَيَّ مَنْ خَاصَمَ لِي، وَظَفَراً بِمَنْ عَانَدَ لِي، وَهَبْ لِي

مَكْرًا عِلَى مَنْ كَايَدَنِي، وَقُدْرَةً عِلَى مَنْ اضْطَهَدَنِي، وَتَكَذِيبًا لِمَنْ قَصَبَنِي، وَسَلَامَةً مِمَّنْ تَوَاعَدَنِي، وَوَفْقَنِي لِطَاعَةِ مَنْ سَدَّدَنِي، وَمُتَابَعَةِ مَنْ أَرْشَدَنِي"(3). ويستفاد من كلمات هذا المقطع رغبة النفس في دفع الضرر عنها، وتجذب أذاها.

ثمّة مقطع آخر من الدعاء، قال فيه الإمام زين العابدين عليه السلام ما يؤكد على طلب الخصال الكريمة: "اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَحَلِّبْنِي بِحِلْيَةِ الصَّالِحِينَ، وَأَلْبِسْنِي زِينَةَ الْمُتَّقِينَ، فِي بَسْطِ الْعَدْلِ، وَكَطْمِ الْغَيْظِ، وَإِطْفَاءِ النَّائِرَةِ، وَضَمِّ أَهْلِ الْفُرْقَةِ، وَإِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ، وَإِفْشَاءِ الْعَارِفَةِ، وَسَتْرِ الْعَائِيَةِ، وَلِيْنِ الْعَرِيكَ، وَخَفْضِ الْجَنَاحِ، وَحُسْنِ السَّيْرِ، وَسُكُونِ الرِّيحِ، وَطَيْبِ الْمُخَالَقَةِ، وَالسَّيْقِ إِلَى الْفَضِيلَةِ، وَإِثَارِ التَّفَضُّلِ، وَتَرْكِ التَّعْيِيرِ، وَالْإِفْضَالِ عِلَى غَيْرِ الْمُسْتَحِقِّ، وَالْقَوْلِ بِالْحَقِّ وَإِنْ عَزَّ، وَاسْتِيقَ لَالِ الْخَيْرِ وَإِنْ كَثُرَ مِنْ قَوْلِي وَفِعْلِي، وَاسْتِكْثَارِ الشَّرِّ وَإِنْ قَلَّ مِنْ قَوْلِي وَفِعْلِي، وَأَكْمِلْ ذَلِكَ لِي بِدَوَامِ الطَّاعَةِ، وَلِزُومِ الْجَمَاعَةِ، وَرَفْضِ أَهْلِ الْبِدْعِ، وَمُسْتَعْمَلِ الرَّأْيِ الْمُخْتَرَعِ"(4).

وقد تكوّن هذا المقطع من شقين، هما:

1- طلب البحث عن الخصال الطيبة، ويشير فيه النص إلى عملية تعزيز سلوكي بقيم الحق والفضائل، ونمو الذات بطابع عبادي سليم، حيث شمل جوانب متعددة إلى حد ما من شخصية الفرد المؤمن، كالجانب الروحي والأخلاقي والوجداني، والتكيف في العلاقات الاجتماعية مع الآخر، وضبط اللسان وتعديله بما يتفق وقول الحق.

2- الشق الآخر من هذا المقطع حاول فيه الإمام زين العابدين عليه السلام دفع المؤمنين نحو تجذب طبائع السوء، مثل ترك تعيير الناس، وترك الإفضال على غير المستحق. وتستبطن كلماته عليه السلام التكيف مع بعض الصفات الشريفة؛ لذلك دعا إلى "ترك التعيير" وإفضال النفس وتكبيرها على الغير؛ أي كف النفس عن التفاعل مع السلوك الشرير.

- الأسلوب الثالث: "دفع السيئ بالحسن"

وفيها قابل الإمام عليه السلام في كلمات هذا المقطع بين أفعال سوء بأفعال حسنة، وكان دائماً يبدأ بنقد السلوك السيئ، ثم يعرض السلوك العبادي المرغوب فيه. وتداخلت كلماته في اتجاه واحد يتبنى فيه الإمام عليه السلام معالجة السلوك غير السوي في الآخر، لا في النفس فحسب، بما أمرنا من عادات السلوك الحسن. وهذا ملحوظ على نطاق واسع في التركيبة اللفظية لنص الدعاء كلاًه ومحتواه المعرفي.

قال عليه السلام: "اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَسَدِّدْ دَرْبِي لِأَنَّ أَعْرَاضَ مَنْ غَشَّيْتَنِي بِالنُّصْحِ، وَأَجْزِي مَنْ هَجَرْتَنِي بِالْكَفْرِ، وَأُثْرِي مَنْ حَرَمْتَنِي بِالْبِدْعِ، وَأُكْأَفِي مَنْ قَطَعْتَنِي بِالصِّلَةِ، وَأُخَالِفَ مَنْ اغْتَابْتَنِي إِلَيَّ حُسْنِ الذِّكْرِ، وَأَنْ أَشْكُرَ الْحَسَنَةَ، وَأُغْضِي عَنِ السَّيِّئَةِ" (5).

•النواتج السيكولوجية الإيجابية

لكل فعل نتائجه، خيرة كانت أو شريرة، ولا تتحقق النتائج بطابع إيجابي إلا بوجود شروطها، كوجود منهج عمل سليم يرجح دائماً غلبة الفضائل وترسيخها، ويساعد على قهر زوائد الشهوات والسيطرة عليها بالرشد وحكمة العقل، والمعرفة الشرعية والقيمية والأخلاقية والوعي العبادي الاجتماعي.

ومما لا شك فيه أن الانضباط على قواعد طريقة التربية بالأضداد، كما أوضحت نصوص الإمام زين العابدين عليه السلام، يصب في تحقيق:

1- الهدفين الأساسيين السابقين لعملية تربية النفس بطريقة الأضداد.

2- بروز نواتج التربية بالأضداد في أنماط مؤتمنة من العلاقات السليمة مع □ ومع الآخر ومع النفس ومع عالم الأشياء أيضاً.

3- تحقيق درجة من النصح، تؤدّي إلى توفير قدر معقول من الصحة النفسية.

4- زيادة ملحوظة في قدرات الأفراد بمجالات النموّ الروحي، وزيادة ثروتهم اللغوية واللفظية، وبناء إيجابي لمشاعرهم الوجدانية، ونموّ منطقي للعلاقات الإنسانية النبيلة، والتكيف السوي مع الآخر. وهذا ما حدّته بعض المعاني العقلية والسيكولوجية في التركيبة اللفظية لنصوص الإمام زين العابدين عليه السلام المستفادة من نصّ دعاء "مكارم الأخلاق".

•رصيدٌ للدنيا والآخرة

وهكذا، فإنّ تراث الإمام زين العابدين عليه السلام من الأدعية، وخصوصاً في الصحيفة السجادية، يمثّل طريقة فعّالة في التربية العبادية الصالحة للإنسان، دنيويّاً وأخرويّاً، وكان غيضاً من فيض.

(*) باحث إسلامي.

1. العلاج النفسيّ وتعديل السلوك بطريقة الأضداد، يوسف مدن، الفصل الثالث، ص 183 – 186.

2. ورد في اسمها أكثر من تسمية مثل (زبور آل محمّد، والصحيفة الكاملة السجادية، والصحيفة الكاملة، وإنجيل أهل البيت، وإنجيل آل محمّد، وزبور آل الرسول)، انظر: كتاب (ظاهرة الدعاء عند الإمام زين العابدين عليه السلام)، للأستاذ علي الشاهر، ص 71 – 72.

3. الصحيفة الكاملة السجادية، الإمام زين العابدين عليه السلام، ص 86.

4. (م. ن.)، ص 87.

5. (م. ن.)، ص 86 – 87.

المصدر: مجلة بقية ا